في بلاد عربية أُخرى.

فرنستنا، لوحة رائعة، تنضح بالحساسية والذكاء والثقافة والإنسانية، وهي كفيلة بمصالحة القراء، وخصوصاً المهاجرين إلى فرنسا منهم، مع فرنستهم، وربما تجعلهم يبتكرون بدورهم فرنستهم التي تلائم مسيرتهم. إن قراءة هذا الكتاب هي مناسبة جميلة للتعرف عن كثب إلى هؤلاء المثقفين الثلاثة الذين يتميزون بحضور بارز في الساحة الفرنسية، لكأنهم أصدقاء قدامى لنا، نعرفهم من أيام الطفولة والشباب، فندخل في ذكرياتهم التي تبدو لنا أليفة كأنها ذكرياتنا، وتعطينا الإحساس بأننا أكثر انسجاماً مع محيط ثقافي يزخر بالمرجعيات الفكرية والأدبية التي تدل على غناهم الثقافي والإنساني والتي تجعلنا، بدورنا، أكثر غنى وثقافة وحكمة.

رانية سماره
مترجمة وكاتبة سورية

كتب بالعبرية

ذكريات ما بعد موتي: قصة حياة يوسف (طومي) لبّيد

يئير لبّيد

القدس: كاتر سفاريم، ٢٠١٠. ٤١٤ صفحة.

كان يوسف (طومي) لبّيد في الثامنة والستين من عمره عندما أصبح أول مرة عضواً في الكنيست الإسرائيلي الخامس عشر (١٩٩٩ – ٢٠٠٣) بعد الفوز المفاجئ لكتلة "شينوي"، حزب الوسط العلماني، بستة مقاعد، ثم ما لبث أن أصبح وزيراً في حكومة شارون بعد أن استطاعت كتلته تحقيق أكبر انتصار انتخابي لها في سنة ٢٠٠٣ بفوزها بـ ١٥ مقعداً في الكنيست السادس عشر وتحوّلها إلى القوة البرلمانية الثالثة بعد حزبَي الليكود والعمل. آنذاك، كان يبدو أن طومي لبّيد بلغ ذروة نجاحه السياسي، وشكّل النموذج الناجح للإعلامي الذي دخل الحياة البرلمانية عن طريق العمل الصحافي. لكن مَن يقرأ سيرته الذاتية في هذا الكتاب يلاحظ فوراً أن الذي خلق حضور طوني لبّيد في الحياة السياسية ليس دخوله إلى الكنيست والوزارة، وإنما عمله الطويل في مجال الصحافة المكتوبة والمرئية والمسموعة، فالذي صنع هذه الشخصية المثيرة للجدل كان، أولاً وآخراً، الصحف والتلفزيون.

صورة الأب من خلال الابن

يروي هذا الكتاب مسيرة يوسف (طومي) لبّيد كما رواها خلال السنة الأخيرة من حياته، لصديقه المقرب أمنون دينكر، والتي قام ابنه يئير لبّيد بصوغها من جديد كما لو أن طومي هو راويها، فإذا بنا أمام استعادة لحياة الأب من خلال عينَي الابن، الأمر الذي شكّل تجربة جديدة في كتابة السيرة الذاتية نظراً إلى العلاقة التي تربط بين الكاتب وصاحب السيرة، والتي جعلت الابن يدخل في جلد الأب ويعيش أحداث

حياته من بداياتها حتى نهايتها.

فقد جاء في الفصل الأول من الكتاب: "أكتب هذا الكتاب بعد موتي، وأغلبية الناس لا تكتب بعد موتها، لكني لست مثلها. أنا اليوم أكتب سيرتي عبر ابني يئير. صوتي إتحد بصوته. لا أدري ما إذا كنت أُثقل عليه بذلك، الأرجح نعم. لقد حضّرت يئير لهذه اللحظة منذ ولادته ومن دون أن يعرف ذلك، رويت له سيرة حياتي بحكاياتها ونوادرها، بحلوها ومرها، بخساراتها ونجاحاتها، وكان يئير دائم الإصغاء إليّ. كان ولداً جدياً ومن دون أصدقاء، وقد حاولت أن أملأ هذا الفراغ من دون أن أسأل نفسي هل أنا سببه؟" (ص ٥).

يصور الكتاب عبر فصول قصيرة نسبياً وبأسلوب سردي متوثب وبلغة شعورية عفوية الأعوام الأولى من حياة طومي لبّيد منذ ولادته في سنة ١٩٣١ في مدينة نوفي ساد في يوغوسلافيا السابقة (صربيا حالياً) من عائلة بورجوزاية من أصل هنغاري، حتى وفاته في إسرائيل في سنة ٢٠٠٨. ويمكن القول إن القيمة الأساسية لفصول هذه السيرة، وهي ٦٢ فصلاً، تقوم على أمرين أساسيين: الأول، أنها احتوت على تأملات وآراء ومواقف الكاتب من المحرقة النازية التي تعرض لها يهود أوروبا وهنغاريا التي كان لبّيد في عداد الناجين منها؛ الثاني، أنها اشتملت على آراء ومواقف لبّيد من تجربة الحياة في المجتمع الإسرائيلي من وجهة نظر يهودي هنغاري ظل حتى النفس الأخير من حياته وفياً لأصوله الهنغارية، ولا سيما روح الفكاهة الخاصة التي تميز بها طوال حياته، كما يقول.

النجاة من المحرقة النازية

تُظهر قراءة الفصول الأولى لهذه السيرة الذاتية كيف تحول طومي لبّيد إلى هذه الشخصية الغاضبة الجامحة والمتعطشة للنجاح، والساخرة الميالة إلى المبالغات في بعض الأحيان، وإلى التحدي.

وتذكّر قراءة الفصول الأولى من الكتاب، والمتعلقة بذكريات طفولة لبّيد، بكتاب مارسيل بروست: "بحثاً عن الزمن الضائع"، فالتذكر يقوم على استرجاع ذكريات روائح ذلك الزمان البعيد في نوفي ساد مسقط رأس لبّيد، ومذاقات وأطعمة وكتب قرأها، وأشخاص التقاهم، وأحاديث أجراها. وهي باختصار قصة كل يهودي عاش تجربة الخوف في يوغوسلافيا آنذاك، ولا سيما بعد غزو هنغاريا لها في نيسان/أبريل ١٩٤١ بمساعدة ألمانيا النازية، وبدء حملات القمع ضد الشيوعيين واليهود. ففي كانون الثاني/يناير ١٩٤٢ طوّق الجيش الهنغاري مسقط رأس الكاتب وأغلق مداخلها واعتقل آلاف اليهود وأمر بقتلهم ورميهم في نهر الدانوب الذي يمر بالمدينة. ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة ما يسميه الكاتب "حياة الخوف اليومي"، فيقول: "عندما تعيش في الخوف مدة طويلة يتحول إلى عادة ويصبح جزءاً من حياتك ويدخل تفصيلاتها الصغيرة" (ص٣٧).

وشكّلت حادثة توقيف النازيين لوالد لبّيد في ليل ١٩ آذار/مارس ١٩٤٤ محطة أساسية مرعبة في حياة المراهق، ابن السادسة عشرة من عمره، والذي تحول من ولد إلى رجل بالغ. ولم يفهم الكاتب قط سبب حقد الهنغاريين على اليهود، إذ كانوا مثلهم فقراء وجياعاً وبائسين، وهو يقول أنه لم يسامحهم حتى اليوم.

وقد استطاعت الأم الهرب مع ابنها من يوغوسلافيا إلى بودابست عاصمة هنغاريا بأوراق مزورة، حيث عاشا مدة من الزمن قبل أن يضطرا إلى ترك منزلهما والانتقال إلى العيش في الغيتو. وبعد مرور أعوام طويلة، قام لبّيد عندما كان وزيراً في الحكومة الإسرائيلية، بزيارة المنزل الذي سكنته عائلته في بودابست، وهو يصف شعوره بالقول: "لم أتعرف على أي شيء، لأن كل شيء تغير ما عدا أمر واحد، إنها الرائحة: رائحة الخوف."

ويروي الكاتب الحياة في الغيتو في بودابست، وكيف أن راوول فلنبرغ، السكرتير الأول في السفارة السويدية، أنقذ آلاف اليهود الهنغاريين وبينهم طومي ووالدته، بينما اختفى عدد كبير من أفراد عائلته في معسكرات أوشفيتز وداشو.

وبين المسائل التي حاول لبيد مناقشتها في هذه الفصول قوله إن هتلر ساهم في فقدانه الإيمان بالله، لكنه جعله يؤمن بيهوديته، كما يناقش سبب عدم الحديث آنذاك عما كان يجري في معسكرات الإبادة، فيقول: "إن العقل البشري، على ما يبدو، معتاد البحث عن منطق ما فيما يحدث، وفي معسكرات الإبادة لم يكن هناك منطق. فحتى عندما كان واضحاً للجميع أن النازيين يخسرون الحرب، فإن عمليات إبادة اليهود استمرت، كما أن عشرات الآلاف من الجنود الألمان، ومن المتعاونين، قاموا بقتل مزيد من اليهود حتى اللحظة الأخيرة."

عندما أصبح طوميسلاف لامبل يوسف لبّيد

تروي الفصول (١٦ – ١٨) تجربة الهجرة إلى إسرائيل التي تتشابه كثيراً مع روايات كتّاب آخرين عنها. إنها حكاية اليهودي الأوروبي الناجي من المحرقة، الذي يعاني جرّاء التأقلم مع بلد غريب "صحراوي" ويتحدث لغة لا يعرفها، والذي يبدأ بتغيير اسمه من طوميسلاف لامبل إلى يوسف لبّيد. وبالنسبة إلى لبّيد، فإن الجيش الإسرائيلي كان الباب الذي شرع من خلاله يتعرف إلى إسرائيل، وقد بدأ حياته في الجيش ميكانيكياً، وفي تلك الأثناء تعلم اللغة العبرية، وحصل على الشهادة الثانوية، وبدأ دروسه في المحاماة.

لكن لبّيد لم يتحول من هنغاري إلى إسرائيلي "حقيقي" إلاّ عندما بدأ العمل في صحيفة "معاريف" في سنة ١٩٥٦. ففي شباط/فبراير ١٩٥٩ تزوج شولا غلعادي ابنة دافيد غلعادي أحد كبار المسؤولين في "معاريف" آنذاك، وقد اتهم البعض لبّيد أن زواجه هو زواج مصلحة، لكن قراءة السيرة تظهر بوضوح أن شولا كانت حبه الوحيد، مع أنها كانت نقيضاً تاماً عنه بخجلها وبعدها عن الأضواء، على الرغم من تحولها إلى كاتبه معروفة.

وتعرّفنا فصول الكاتب إلى أوجه لبّيد المتعددة: من الصحافي الطموح الناشئ الفضولي والباحث عن الحقيقة، إلى الإعلامي المشهور والمشاكس، مروراً بشخصية رجل الأعمال عندما عمل فترة لدى المليونير اليهودي روبرت ماكسويل الذي اشترى "معاريف"، وقام بشراء أهم الصحف التي كانت تصدر في أوروبا الشرقية قبل أن تنتهي حياته نهاية غامضة في إثر وقوعه في أزمة مالية خانقة. كما نتعرف على شخصية الصديق الوفي الذي يحافظ على صداقاته، والشخص الجريء والصريح الذي تسببت له صراحته بعداوات كثيرة، لكن الوجه الأكثر تأثيراً في القارئ هو الوجه المأساوي للأب المفجوع بموت ابنته الكبرى، الطبيبة النفسية، التي قُتلت في حادثة سير.

نموذج الاعتدال الوسطي العلماني

إن الصورة التي ترتسم لطومي لبّيد كرجل سياسي تبدو مركبة وعصية على التصنيف التلقائي، فعلى الرغم من عمله أعواماً طويلة في صحيفة "معاريف"، الصحيفة الثانية ذات التوجهات القومية المحافظة، إلاّ إنه كان دائماً يعتبر نفسه وسطياً لا ينتمي إلى اليمين لأنه ضد السيطرة بالقوة على ملايين الفلسطينيين، كما يقول، ولا إلى اليسار، لأنه كان يعتقد أن الدعوات التي ظهرت بينهم، والتي تدعو إلى دولة ثنائية القومية، ستؤدي إلى زوال الفكرة الصهيونية. يقول لبّيد مثلاً في الفصل ٤٨: "لم أكن يوماً من أنصار اليمين، وكنت من الذين يعتقدون أن علينا الانفصال عن الفلسطينيين والسماح لهم بإنشاء دولتهم على الجزء الأكبر من يهودا والسامرة وغزة. وفي سنة ١٩٩٢ اقترعت للمرة الأخيرة لمصلحة حزب العمل. وعلى الرغم من محبتي للمستوطنين، فإنني كنت على الدوام أعتقد أن المشروع الاستيطاني سيؤدي إلى القضاء على الأغلبية اليهودية في إسرائيل، وإلى تدمير الفكرة الصهيونية" (ص ٣٠٢).

لكن الميزة الأساسية التي ميزت لبّيد طوال حياته، هي نزاعه مع المتدينين الحريديم. فهو لم يستطع أن يقبل وجود فئة من الإسرائيليين تتمتع بجميع حقوق المواطنية،

وتستفيد من التقديمات كلها، وتكون في الوقت عينه معفاة من الخدمة العسكرية ومن دفع الضرائب، وتتمتع بامتيازات على حساب سائر طبقات المجتمع. وقد وقف طوال عمله كإعلامي وسياسي ووزير في الحكومة، ضد تحكم الأحزاب الدينية في مقدرات الدولة، وحارب سياسة الابتزاز التي كانت تمارسها. ففي رأيه ليس هناك مواقف سياسية مبدئية لحزب مثل "شاس" الذي كان مستعداً لبيع تأييده للحكومة في مقابل مبالغ وميزانيات مالية يحصل عليها الحزب ومؤسساته. لقد حارب لبّيد الفساد المستشري في الحياة السياسية وعمل على فضحه، لكنه يعترف في سيرته بأنه لم يقف موقفاً واضحاً وجريئاً عندما جرى اتهام أريئيل شارون بالحصول على أموال ورشى، ويعتبر أن ذلك نقطة سوداء في تاريخه.

التقى لبّيد في مسيرته المهنية كثيراً من الزعماء، من بن ـ غويورن الذي رافقه في رحلة إلى بورما في سنة ١٩٦١، وفي الطريق توقفت الطائرة في طهران حيث التقى بن ـ غوريون سراً شاه إيران، وقد سرّب لبّيد الخبر إلى صحيفة "معاريف" محققاً سبقاً صحافياً، مروراً بموشيه دايان وكثير من الشخصيات السياسية التي كان يستضيفها في برنامجه التلفزيوني. وبين أصدقائه المقربين كان إيهود أولمرت، كما أن صلة جيدة ربطته بأريئيل شارون، أمّا إيهود باراك فلم يكن يكنّ له مودة خاصة.

وبين اللقاءات المهمة اللقاء مع عرفات، كما كانت تربطه صداقة متينة بعضو الكنيست أحمد الطيبي.

وما يثير الاهتمام في سيرة حياة لبّيد التقلبات الكثيرة التي مر بها ومراحل الصعود والهبوط، فعلى سبيل المثال، انتقل بين ليلة وضحاها من شخصية مؤثرة ومسيطرة في إسرائيل عندما كان مديراً عاماً لهيئة الإذاعة والتلفزيون، وهو المنصب الأكثر حساسية في إسرائيل، إلى شخص عاطل عن العمل خائف على مستقبله وحياته المهنية بعد إبعاده عن منصبه. واللافت أنه أعطى عمله الصحافي والإعلامي أهمية أكثر من موقعه في الكنيست وداخل الحكومة، والذي اعتبره عابراً. ففي قرارة نفسه كان لبّيد صحافياً، وبقي صحافياً حتى أيامه الأخيرة.

ورفض لبّيد في الأشهر الأخيرة من حياته مواصلة العلاج الكيميائي لمرض السرطان الذي أصابه، وطلب وقفه، وآثر الموت قبل أن يتدهور وضعه، ومات متصالحاً مع حياته ومع موته.

وتبدو السيرة الذاتية التي كتبها ابن لبّيد عن والده، بمساعدة والدته وأصدقاء والده، بمثابة التفاتة وفاء أخيرة من جانب هؤلاء إلى ذكرى لبّيد. وقد نجح هذا الكتاب إلى حد كبير في تقديم صورة صريحة لشخصية إسرائيلية تركت أثرها في الحياة السياسية الإسرائيلية.

لقد ركزت سيرة لبّيد على الجوانب الشخصية والخاصة، لكن من الصعب ألاّ ينتبه القارئ العربي إلى أن ليبرالية لبّيد واعتداله ووسطيته ودفاعه عن الحرية لم تجعله أكثر تفهماً لتوق الفلسطينيين، شعباً وأفراداً، إلى حياة حرة وكريمة، وأن تجربة الخوف كلها، التي عرفها في حياة الغيتو، لم تجعله أكثر تحسساً لخوف الفلسطيني على حياته وعلى مستقبله، وأن كراهيته لوحشية النازيين ونفوره من غطرسة الشيوعيين لم يدفعاه إلى رؤية الغطرسة والعنف الإسرائيليين وإدانتهما، لكن الأهم من هذا كله، فإنه، كونه من الناجين من المحرقة، لم يطرح على نفسه السؤال الأساسي: كيف يمكن السكوت والقبول بالعيش في بلد مثل إسرائيل حيث تتحول الضحية إلى جلاد؟!

رندة حيدر
باحثة في الشؤون الإسرائيلية